

المحاضرة الثانية: مراحل تطور الاتصال الإنساني

مرّ الاتصال بمراحل تطورية متعددة منذ وجود الإنسان على الأرض، حيث مارس أشكالاً مختلفة من التواصل، وقد اختلف الباحثون في تصنيف هذه المراحل تبعاً لمنطلقاتهم النظرية والبحثية. ويمكن حصر المراحل التطورية للاتصال فيما يلي:

1- مرحلة الإشارات والاتصالات الشفهية

انطلق عدد من الباحثين الغربيين من فرضية مفادها أن الإنسان البدائي اعتمد في تواصله على الإشارات والرموز وبعض الأصوات البدائية، مثل الزمجرة والصراخ، ويُعد كل من دوفلور و روكيش من أبرز من تبني هذا الطرح، استناداً إلى التصور الدارويني التطوري

غير أن هذا التصور لا ينسجم مع المرجعية الثقافية والدينية الإسلامية التي تؤكد أن الإنسان خلق ناطقاً ومكرماً بالكلام، كما ورد في القرآن الكريم، وتؤكد الروايات القرآنية المتعلقة بالحوار بين هابيل وقابيل. ومع ذلك، تبقى الإشارات والأصوات من الوسائل الاتصالية الأولى التي استخدمها الإنسان واستمرت معه إلى اليوم.

كانت الإشارات والكلمة المنطوقة الوسيلة الاتصالية الأولى، حيث تم الاتصال مباشرة من الفم إلى الأذن، مما عزز العلاقات الاجتماعية وحقق التماسك الاجتماعي داخل الوحدات القبلية.

كما أدّت الكلمة المسموعة دوراً محورياً في التربية والتعليم وتنظيم شؤون الحياة اليومية، وظهرت أولى أشكال الإعلام عبر المناداة، لتتطور لاحقاً إلى الرواية والشعر.

اتسم الاتصال في هذه المرحلة بكونه اتصالاً مباشراً يشترط حضور المرسل والمتلقي في الزمان والمكان نفسيهما، وهو ما قيد العملية الاتصالية. ولتجاوز ذلك، استخدم الإنسان وسائل بديلة مثل الدخان نهراً وضوء المشاعل ليلاً، مع دلالات زمنية محددة لطول الإشارة والفواصل بينها.

2- مرحلة الكتابة

تُعد الكتابة من أهم الوسائل الاتصالية التي اخترعها الإنسان، وقد مرت بعدة مراحل:

1-2 الكتابة التصويرية (الوصف التصويري)



اعتمدت على الصور والرموز لتجسيد الأفكار والأشياء، وظهرت لتلبية حاجات التوثيق وتنظيم المعاملات والملكية، كما استُخدمت في السياقات الجمالية والدينية. ومع تبسيط رموزها، تطورت إلى الكتابة الهيروغليفية، التي اتسمت بتعقيدها وحصر القراءة والكتابة في فئة النخب.

في هذه المرحلة، أصبحت الرسالة وسيلة أساسية للاتصال عبر المسافات، ونُقلت مشياً أو على ظهور الخيل أو باستخدام الحمام الزاجل.

2-2 الكتابة على أسس النطق (الكتابة الصوتية)



ويُعد السومريون من أوائل من ابتكروا هذا النظام، حيث أصبح كل رمز يدل على صوت محدد، مما قلّص عدد الرموز ومثّل نقلة نوعية في تاريخ الاتصال.

2-3 الكتابة الأبجدية

تبلورت الكتابة الأبجدية في بلاد الإغريق حوالي سنة 700 ق.م، واعتمدت على الحروف لتمثيل الأصوات، مما أدى إلى ظهور أبجديات خاصة بمختلف اللغات. كما طُوّر الإغريق نظام الاتصال بالبرق المرئي حوالي 500 ق.م، عبر إشعال النار وفق ترتيب الحروف.

ورغم تطور الكتابة، ظل الاتصال في هذه المرحلة فرديًا، محدود الجمهور، مع غياب الوسائط الجماهيرية وسيطرة الاتصال المباشر أو شبه المباشر.

-3مرحلة الطباعة

تطورت مواد الكتابة من النقش على الحجارة وألواح الطمي إلى أوراق البردي ولحاء الأشجار، ثم الورق الذي اكتشفه الصينيون. وازدادت أهمية الورق مع اختراع يوحنا غوتنبرغ للمطبعة سنة 1450م باستخدام الحروف المعدنية، مما قلل أخطاء النسخ اليدوي.

كما عرف الصينيون الطباعة الخشبية وطبعوا كتاب محاورات بوذا سنة 800م. ويُعد الإنجيل أول كتاب طُبِعَ بتقنية غوتنبرغ سنة 1455م، وانتشرت المطابع في أوروبا ليصل عددها سنة 1500م إلى نحو 250 مطبعة.

-4مرحلة الإعلام والاتصال الجماهيري:

شهد القرن التاسع عشر ثورة في الاتصالات الجماهيرية نتيجة الثورة الصناعية والحاجة إلى الاتصال غير المباشر، ظهر التلغراف سنة 1837، ثم اختراع غراهام بيل الهاتف سنة 1876م، وتلاه اختراع توماس إديسون للفونوغراف.

وفي سنة 1895م، نجح غولييلمو ماركوني في إرسال أول إشارة لاسلكية، ثم عبر المحيط الأطلسي سنة 1901م، ما مهد لظهور الإذاعة التي لعبت دورًا دعائيًا بارزًا في الحرب العالمية الثانية.

لاحقًا، ظهر التلفزيون مع أول بث أمريكي سنة 1941م، وانتشرت السينما منذ 1895م، وصولًا إلى السينما الناطقة سنة 1927م، لتكتمل ملامح الاتصال الجماهيري الثقافي والإخباري.

-5المرحلة التفاعلية

عرف النصف الثاني من القرن العشرين اندماج تكنولوجيا الحواسيب ووسائل الاتصال، ما أدى إلى ظهور الإنترنت والصحافة الإلكترونية ودخول العصر التفاعلي، متجاوزًا القيود الزمانية والمكانية. وتميزت هذه المرحلة بخصائص أساسية هي:

أ. التفاعلية (Interactivity) حيث يتبادل القائم بالاتصال والمتلقي الأدوار، ويُنظر إلى أطراف العملية الاتصالية بوصفهم مشاركين، مع اعتماد الاتصال الثنائي والتبادلي.

ب. التفكيت (Demassification) ويعني تعدد الرسائل بما يتناسب مع الأفراد أو الجماعات الصغيرة المتجانسة بدل توحيد الخطاب للجماهير الواسعة.

ت. اللاتزامنية (Asynchronization) أي إمكانية إرسال واستقبال الرسائل في الأوقات المناسبة للمستخدم، كما هو الحال في البريد الإلكتروني.

ث. الحركية والمرونة (Mobility) حيث يمكن استخدام الوسائل الاتصالية في أي مكان، مثل الحاسوب الشخصي والهاتف المحمول.

ج. قابلية التحويل (Convertibility) وتعني قدرة الاتصال الرقمي على تحويل الإشارات المسموعة إلى نصوص أو صور والعكس.

ح. قابلية التوصيل (Connectivity) أي إمكانية دمج الأجهزة ذات الأنظمة المختلفة بغض النظر عن الشركات المصنعة.

خ. الانتشار (Ubiquity) حيث تحولت الوسائل الجديدة من أدوات تكميلية إلى وسائل أساسية في الحياة اليومية.

د. الكونية (Globalization) إذ أصبحت بيئة الاتصال عالمية تتجاوز حدود الزمان والمكان والرقابة.

وقد بدأت هذه المرحلة منذ منتصف الثمانينيات ولا تزال مستمرة، مع الاعتماد على الأقمار الصناعية والألياف البصرية والتكنولوجيا الرقمية ومتعددة الوسائط، واتساع استخدام الإنترنت والنشر الإلكتروني.